تمظهرات الأسطرة في النص الروائي العراقي

The manifestations of the lines in the Iraqi novelist text

أ.م.د. زينة حمزة شاكر
Assist.Prof.Dr. Zeina Hamza Shaker
كلية الفنون الجميلة / جامعة بابل
College of Fine Arts / University of Babylon
drzeenahamza@gmail.com

ملخص البحث:

يبقى الجنس الروائي ذلك النوع الذي يستعصي على الانزواء تحت تسمية معينة، الرواية جنساً أدبياً مختلفة ومتنوعة حسب الزاوية التي ينظر اليها القارئ باعتباره متلقٍ والروائي بوصفه منتجاً للنص، واذا كانت الرواية كجنس أدبي يرفض الانزواء بعيداً عن الأجناس التعبيرية الأخرى، فإنها انفتحت في سردياتها على الشكل الأدبي الاسطوري والذي يمثل جزءاً كبيراً ومهماً من الموروث الأدبي، ان توظيف الاسطورة في النص هو نتاج رؤية ثقافية وفنية تستند الى مرجعيات ثقافية أخرى تاريخية واسطورية، أي انها ليست رؤية فردية، انها في المحصلة وعي جمالي يتشكل جمالياً وفكرياً ليأخذ من مرجعيات متعددة المصادر والابعاد، فالأسطورة في اشتباكها مع الرواية لا تشكل بناءً على قدرتها في مفارقة الواقع لكن تعتمد البناء السردي من خلال الصياغة الاسطورية أو التشكيل الاسطوري للواقع وفق قوانينها الخاصة، تتجاوز الواقع لتعيد بناءه وفق أنساقها الخاصة، ولعل رواية لطفية الدليمي (حديقة حياة) اقتربت في مفهومها من ذلك التشكيل وفق معمارية بنائية انتهجتها الروائية العراقية لتجعل من شخصياتها الأسطورية بوابة للخلود المفقود في وطن تلقفتهُ ويلات الحروب والدمار.

وقد جاءت الدراسة في مدخل تناول ملخص الرواية والبناء السردي من احداث تشكلت، عززها ظهور الفضاء العراقي بمفهوماته الثقافية والاجتماعية وقد ارتكزت الى منهج نقدي يتواصل مع المناهج النقدية التي تعنى بفضاءات النص وتحتفي به بما يتناسب مع أهميته في كونه نص مفتوح على أنساق التعبير المختلفة ومنها الأسطورة، وقد عزز منهج البحث فقرتين الأولى تبحث في النسق الاسطوري في التشكيل الروائي والثانية الشخصية الروائية بين الاسطورة والواقع ثم خاتمة انتهت الى أهم نتائج البحث وفهرس بمحتويات البحث ومصادره ومراجعه.

الكلمات المفتاحية: النسق الاسطوري، الشخصية الاسطورية، الواقع، الوطن، المرأة الساردة.

Abstract

The novelist gender remains that type that is difficult to withdraw under a specific label. The novel is a different and varied literary genre according to the angle viewed by the reader as a recipient and the novelist as a producer of the text. The legendary literary, which represents a large and important part of the literary heritage, that the employment of the legend in the text is the product of a cultural and artistic vision based on other historical and mythological cultural references, that is, it is not an individual vision, it is in the end an aesthetic awareness that is formed aesthetically and intellectually to take from multiple references sources and dimensions. The myth, in its clash with the novel, is not formed based on its ability to paradoxical reality, but rather adopts the narrative construction through the legendary formulation or the legendary formation of reality according to its own laws. According to a constructivist architecture adopted by the Iraqi novelist to make of her legendary characters a gateway to lost eternity in a homeland that has been seized by the scourge of war and destruction.

The study came in the introduction to dealing with the summary of the novel and the narrative construction of events formed, reinforced by the emergence of the Iraqi space with its cultural and social concepts. The research methodology has reinforced two paragraphs, the first looking at the mythical pattern in the fictional formation and the second the fictional character between myth and reality, and then a conclusion that ended with the most important results of the research and an index of the contents of the research, its sources and references.

Keywords: the legendary pattern, the legendary character, reality, the homeland, the narrator woman.

مدخل:

يمثل النص الروائي العراقي خصوصية ثقافية وفقاً لأنساق الثقافة الداعمة له من كونه نص يتشكل في أطر ثقافية واجتماعية وسياسية ومثيولوجية متعددة، بما معناه انه نص ينحدر من حاضنة ثقافية خاصة والسرد العراقي النسوي تحديداً يشكل ملمحاً خاصة في كتابة الرواية، عامة ثمة خصوصية يلوح بها السرد الروائي النسوي اذ يؤشر وعياً جمالياً في استثمار فضاءات النص الآخر، اذ تشكل الروائية لطفية الدليمي في نتاجها السردي

(حديقة حياة) والصادرة من اتحاد الكتاب العربي – دمشق في ٢٠٠٣ انعتاقاً واضحاً من اطار السرد التدويني المكرر للمعمار السردي، وكما عهدناها فقد سعت الى منح السرد في هذه الرواية مسرحة للشخصيات والحدث، في فضاء بصري مما يفكك الحبكة التدوينية ومعمار الرواية السردي الى شذرات حوارية توضح عمق الهوة وما آل اليه حال البلد وهو يتخبط في ازماته وحروبه فاختارت لروايتها نسقاً كتابياً جديداً بعهدة تدوينية تميل الى اسطرة شخصياتها، وكأني بالروائية قد أثرت الكتابة عن واقعها المخيب من خلال فعل الأسطرة وكأن مايجري على هذا الوطن بات ضرباً من الخيال فلنتأمل هذا المقطع (لا أملك مكيالاً لقياس الطوفانات ولكني أتيقن وهي مستغرقة في البكاء انها تدفع ضريبة الدموع عن نساء البلاد جميعهن من أول الخليقة حتى آخر الحروب)[١].

١. النسق الاسطوري في التشكيل الروائي

ان النص الروائي عندما يستدعي الاسطورة فانه يستدعي نصاً ثقافياً مهماً وهي جزء من موروث انساني لثقافة أممية لها حضارتها وتاريخها الخاص، فهي علامة فارقة تمارس تأثيرها عبر حضورها الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والفكري، والأدبي، في التاريخ، والاساطير العراقية القديمة تمثل أكثر الموروثات حضوراً في الثقافة العراقية ولاسيما الرواية التي تنفتح على أجناس تعبيرية مختلفة بما تمنحه الاسطورة من مضامين فلسفية وفكرية تغني النص وتستثمر رموزها في صناعة واقع بديل؛ واقع يتخطى الزمن القياسي المعروف الى زمن مطلق، يستجلي عتبة الراهن ويؤسس لراهن جديد، فيمنح الأديب عمله بعداً جمالياً أكبر، وتقترب الاسطورة من التشكيل الروائي في انها " رواية أفعال إله أو شبه إله ... لتفسير علاقة الانسان بالكون، أو بنظام اجتماعي بذاته أو عرف بعينه أو بيئة لها خصائص تنفرد بها"[٢].

وقد شكلت الاسطورة تقاطعاً مع حقول معرفية عديدة، وأكثر تلك الحقول اهتماماً بالأسطورة هو علم النفس التحليلي، الذي رأى في الاسطورة مجالاً خصباً للتعبير عن المكبوتات والدوافع اللا شعورية، ومن ثم نظر الى الاسطورة كرموز لحقائق نفسية تعبر عن قوى لا واعية معتملة في اللاشعور الانساني.

ان للأسطورة تواصل تاريخي مفعم الصلة تتجاوز الزمان والمكان عبر بنيتها الانتقالية مكرسة في التاريخ الطويل ونشاطاً فكرياً وروحياً، استعان بها الانسان لمقاومة مايريد وستظل فاعليتها في الابداع الانساني بوصفها نصاً مفتوحاً على العناصر الدينية والثقافية[٣].

وبهذا فأن لجوء الروائي الى الاسطرة في تحولها التاريخي فعلاً حاضناً للتحولات، والنكوص الماضي من قبل الروائي مسكوناً بهاجس الحماية للذاكرة والدفاع عن وطنه ضد عوامل السقوط والانهيار فهو الوحيد القادر على التقاط جوهر حركة الناس والاشياء من الوقائع السالفة والراهنة[٤].

ولأن الاسطورة مركز ومصدر الابداع، فقد استقدم الروائيون العراقيون نصوصاً رافدينية قديمة عكست الواقع في جانب منه وأثبتت تخطيها عنصر الزمن بوصفها الدستور الأول، وبذلك انتقل السرد بالنص من الثابت الى المتحول، ومن تلك النصوص الخالدة التي يدور البحث في رحابها (ملحمة جلجامش) الرافدينية، والتي نشأت من عدة أساطير وهي مثال على خلود العمل الفني الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان، ليس بسبب خلودها ومكانتها فحسب، بل بسبب التأثير الذي حازته في الكثير من النصوص والأعمال الفنية، ورغم هذا العديد الذي تناول بالطرح الأسطورة في النص الأدبي.

وغالباً ما يتسم بتشكيل فني يتخذ جانبين، الأول يستلهمه استلهاماً كلياً وآخر جزئياً بمعنى تضمينه في موقعٍ ما في النص(٥).

ان توظيف (ملحمة كلكامش) في النص الروائي العراقي النسوي لا يعني تدشين لفرضيات جديدة في التشكيل السردي بل في خصوصية التشكيل والطرح، فتركيز الرواية النسائية العراقية على صورة كلكامش يعود الى كونه رمزاً مهماً في الذاكرة الفردية والجمعية التي شكلتها اللغة، لتعيد من خلالها بناء صورة المرأة / الرجل، الموت، الخلود، المعرفة/الجهل، فالرموز جزء أساسي في الوعي الجمعي، وذاكرة الرموز بحكم تشكلها الرمزي فانها تشتغل بطاقة تكثيف وتركيز عاليين في عملية التنصيص وحساسية أعمق في تخصيب الفن ودلالات تشكله، لأننا عندما نقول ذاكرة الرموز نعني أن الرمز ينهض على حيثيات راسخة في الذاكرة الجمعية، فالملحمة بتوظيفها كرمز أسطوري داخل النص الروائي بمثابة تمثيل ثقافي ورية للوجود ابتكرها الانسان القديم لتفسير الحياة والكون، والوجود، وتعد في أحد مستوياتها شكلاً رمزياً في التعامل مع العالم والأشياء، ونقطة التقاء بين الوجود واللاوجود، بين المرئي والخيالي.

وظف السرد الروائي الاسطورة للتعبير عن انسان هذا العصر، وقد جاء توظيف الروائية لطفية الدليمي في روايتها (حديقة حياة) للاسطورة لا بغرض الايهام والغموض بقدر ماهي تعبير عن طروحات المرأة الفكرية والسياسية والاجتماعية باخراجها من مرجعياتها التاريخية الى حيز حضاري.

تبرز (ميساء) احدى شخصيات الرواية وابنه حياة في (حديقة حياة) وتتبنى الروائية بتقنية الميتاسرد توجيه السرد الى تقانة اخبارية من خلال نص الرسالة التي تبعثها ميساء الى حبيبها زياد الذي سافر وترك البلاد الى غير رجعة بعد أن غيب الموت عائلته وفي الفصل المعنون (كلكامش وشجرة الصفصاف) تكتب له رسالة وتجعل من نفسها نصاً موازياً لنص الملحمة، وبين ماضي الشخصية الملحمية وراهنية الواقع العراقي يجري قراءة فكرية للواقع بتدشين نمط سردي حكائي جديد، ومحاولة لإثارة ذهن القاريء نحو احداث وواقع قد وقع على جهة الحقيقة

وماضي قم تم استدعاؤه بعملية دمج بين الشخصيات الحقيقية ذات الدور الفاعل في النص السردي والشخصيات ذات المضمون الاسطوري.

اعادت الروائية من خلال شخصية (ميساء) بناء النص الملحمي لتقدم لنا وبتقانة الرسالة المرسلة رؤية جديدة تتخطى حدود النص لتبحث في ما وراءه وهو عبارة عن حوار طويل بين سيدة الحانة التي تحاول أخذ كلكامش الى اللهو والخمر والنساء، وسيدة المعرفة التي تريده أن يعرف أكثر، أن يثابر ويتحول الى خالد، لذلك اصطحبته الى بحر الموت ليجد الاجابة لكل أسئلته ويواجه حقيقتين يرفضها تماماً، الأولى رفضهُ حقيقة الموت وحقيقة ان ملك أوروك العظيم سيتحول الى جسد يأكله الدود ومن ثم يتحول الى رماد والحقيقة الثانية رفضهُ الاعتراف بالزمن الذي أوجده الاله ليكون زمننا الذي تعيش ونشيخ ونموت فيه ويكون قاهرنا(٦).

تتشكل احداث الرواية من خلال شخصية ميساء ممثلة بأوراقها وذكرياتها وآلامها ومعاناة أمها (حياة) فقدت آلام روحها في الحرب وعانت ميساء بسبب الحرب أيضاً فقدانها لحبيبها زياد عندما سقط صاروخ على بيته مما اضطره لمغادرة البلاد الى انكلترا لكن هذا الفراق لم يكن عائقاً أمام تواجلهم بتقنية الرسائل المرسلة، أمام هذه الرحلة الطويلة أدخلت الروائية في نص الحوار بين البطل الاسطوري كلكامش والشخوص المماثلة أمامه في ملحمته شخصية (شجرة الصفصاف) في اندماج استعاري ارسطوري في تمثل (حياة) وحديقتها في استعارة دلالية لازدهار الحياة وتجددها وشخصية (نيساب) التي تمثل المعرفة حيث جعلت خلاصة الرواية في مسرحية الحدث بشواهد تمثل العراق(٧).

يجري موت السارد العليم العارف لمكامن السرد والمكتشف لأفكار الذات الانسانية ومن خلال تقانة الرسالة المرسلة من (ميساء) الى (زياد) بعنوان (كلكامش وشجرة الصفصاف) يجري تعطيل مسار السرد (يسمع كلكامش حركة بين الشجر وأنيناً غامضاً ينظر الى العظام والقرون المتناثرة...

كلكامش: أينما وليت وجهي أجدُ نذر المصير ... كل شيء الى فناء

وأنا؟ ..... أنا كلكامش ... أأغدو عظاماً وتراباً تذروه الرياح ؟

لا .... ياله من مصير يليق بالزواحف ... هذا خطأ جسيم في نظام الكون ...

لماذا؟ .... أي أجد الجواب ؟ ... أين ؟ ما أضيق الدنيا، ما أشد مخاوفي ....

صوت هامس مرتعش: أأنت خائف؟ هل ادلك على مايهزم فيك الخوف؟

كلكامش مباغتاً: من هذا الذي أسمع؟ ما الذي يهزم خوفي؟

الصوت: أعمل غير نفسك فيتغير العالم ... أعمل تبعد عن قلبك هذا الخوف.. (...)

كلكامش: متعجل لأني أروم السفر في مياه بحر الموت والأسئلة تعذبني لأنني أنا سؤال حائر يطوف العالم بحثاً عن جواب ...(...)

الصوت: لو أمعنت النظر الى نفسك لعثرت على الجواب .... ان الأهم لدي أن يتساءل الانسان ... السؤال اجدى من الجواب ... (....) كلكامش: ما أنت؟ "[٨].

وفي اشارة دلالية عبر تقنية الحوار المسرحي يقمص الصوت (شجرة الصفصاف) الصوت الآخر ويتولى مسرحة الحدث " الصوت: أنا شجرة الصفصاف ... انظر الى جسدي الخشبي فأعرف الاجابة ... (...)

(...) الصوت: نعم هذا الجذع الموصول الى أعماق الأرض الممتد الى مديات الشمس .... كلكامش: مابه؟

الصوت: تأملني، وانظر كم مرة قطعوا جذوعي ... قاومت الموت؟ قاومت الفأس، لكني في يوم آت سأموت انظر كم جذمة مقطوعة تحيط بي؟

كلكامش: أطمئني ياصديقتي شجرة الصفصاف لن يقطعك أحد ... ولن يصنعوا النعش من جذعك الباقي "[٩].

وفي ذلك التضمين بدلالات (النعش، القطع) اشارة رمزية الى الموت والقتل وما استبيح في هذه الأرض وبدلالات فعل الاستبداد بالقطع والنعوش تتصدر رمزية الموت التشكيل السردي، فليس ثمة نور يلوح في السرد، بل السرد مقتون بالأسئلة التي تبحث عن اجابة فما زال (كلكامش) يواصل بحثه عن طريق للبقاء ليجعل منها معادلاً موضوعياً لشخصية الانسان العراقي المسحوق (رجل – إمرأة) الباحث عن الأجوبة المصيرية بتوظيف لتقانات تجريبية جديدة في التشكيل السردي ويبدو ذلك التوظيف رهيناً بالتجريب الروائي الحديث لأن الزمن المعاصر لم يكن نافعاً بصورته الواقعية فيتم استبداله بزمن بديل، تتولى الروائية مسرحة الحدث رسم مشاهد تلك المعاناة ومحاولة الكاتبة والروائية العراقية القفز فوق الثوابت والعودة الى الماضي حيث الموروث والاستعانة به لتحقيق هذا الهف، ولأن التوظيف الاسطوري يشكل أفقاً جديداً للقراءة لتصوغ مناخاً سردياً يفيد من التاريخي والثقافي والتشكيلي والجمالي من جانب آخر ولكي تخرج الروائية عن قالب السطحية والتقريرية العادية المتمثلة بالجانب الايصالي للغة تعيد تشكيل نصها أسطورياً فتقيم بين شخوصها خطاباً حوارياً يستعيد زمناً ماضياً، تستعين الروائية بشخصية (نيسابا) سيدة المعرفة لتثبت عبرها اجاباتها التي تتعلق بالانسان والمصير والوجود وتطلق عليها (سيدة المعرفة) التي تتقاطع مع شخصية (سيدوري) ويبدو التقاطع بينها واضحاً ومن فضاء النص الى فضاء الواقع تطرح الروائية خطابها المقتون باستعارات الواقع ما تقوله هذه المرأة، لا تصدق ما رددته الحكايات والقصص القديمة، لا تأخذ ما يقوله الرواة مأخذ الجد انهم يبالغون ويكذبون ويزيفون الحقائق، انا نيسابا سيدة المعرفة حذفوا وجودي من نص الملحمة فلبثت حبيسة العدم لكنني ذاكرة الكاتبة السومرية وأوحيت لها أن

تظهر من خلال عصر من العصور، لو كنت ظهرت آنئذ لتغيرت احداث المحمة ولتبدلت أحوال البلد واخبار الملوك وتحركاتهم "[١٠].

وفي تقانة ملفته من الكاتبة وبتقنية الحوار تدخل الروائية النص (شخصية) في الرواية وعبر تقنية الميتا سرد لتصوغ متناً سيرياً بنقش بصماته على ذاكرة المكان مواجع وتطلعات " كلكامش: ولكن لماذا؟ لماذا قدرت الآلهة علينا الموت؟ نيسابا ألا تعرف؟ لأنها أوجدت الزمن ... كلكامش: أي زمن؟ (...) أكانت الحياة ستدوم لو لم يوجد الزمن؟ هل يجب أن أفتك بالزمن؟ نيسابا: لا حياة بلا زمن (....)

ربما سأذهب معك لأحول بينك وبين أشياء كثيرة ولنغير معاً أحداث الملحمة"[١١]، يتحول السرد الى سير ذاتي ليكشف وهن الواقع الراهن وزمنيته الدائرية.

ثمة خصوصية يلوح بها التشكيل السردي الروائي النسوي، اذ يؤشر وعياً جمالياً في استثمار فضاءات النص الآخر سواء كانت فلسفية أم تراثية أم أسطورية، اذ أن استدعاءها " يبوح بمكابرة دلالية تطمح الى تخليق خطاب روائي ذي مرجعية معرفية تتمدد على أرض الثقافة والفكر وتسعى الى بلورة متعة مركبة وعميقة، وقد أفلح النص الآخر في أن يهب الرواية حساً انسانياً ذا طابع عالمي "[١٢].

لم تغفل لطفية الدليمي (الكاتبة السومرية) كما تسمى نفسها في متن الرواية رمزها الاسطوري (عشتار) لتجعل من نصها الروائي خصوصية في الطرح وخصوصية في الاستدعاء وهي تميل الى كتابة تطرح نفسها كأمرأة كاتبة تنفرد بالسرد وهو استدعاء في إشارة ضمنية الى شخصية (زياد) الذي رفض التمسك بميساء وهاجر الى بلاد أخرى تاركاً اياها وهي المتشبثة بجذورها العراقية تروي عشتار قصة اعجابها بالملك كلكامش الذي قتل الوحش خمبابا كما تقول الروايات وعاد الى اوروك منتصراً فتطلب منه الزواج لكنه يرفض.

تقول: " نعم .. أراد له الجد أن يعود بشراً سوياً قادراً على الحب، هو الذي رفض حب عشتار له والدليل عند صاحبة الحانة البحرية سيدوري التي تلقن الناس أسرار الحياة البشرية"[١٣].

هنا نعترف بأن النص الآخر في هذا المقتطف الروائي لم يأت على طريقته التقليدية التي ألفناها في متون النصوص الروائية وانما وردنا من خلال ذاكرة الشخصية فكانت الكاتبة هي الانا الشاهدة، التي أعدت الخطاب الروائي بخزينها المعرفي والذي أعطى النص الروائي طابعاً محلياً بنكهة عراقية خاصة " ذلك أن الاسطورة بتعالقها مع الرواية، لا تتحدد بناءً على قدرتها على مفارقة الواقع فقط ولكنها تعتمد أيضاً البناء من خلال الصياغة الاسطورية للواقع من خلال قوانينها الخاصة ومحاولة تجاوز الواقع واعادة النظام له" [١٤].

تقول الساردة : اقترحت أمي أن نزرع ثلاثتنا شجيرات جوري تسمى لمن زرعها ... عندما سافر زياد تعهدت شجريته برعايته مضاعفة فكنتُ أرويها عندما تبزغ نجمة المساء معتقدة ان اقتران الري بظهور كوكب عشتار سيمنح النباتات خصباً (...) كم كنت أعلق آمالاً على اشارات الأرض (....) ومنحتني هذه الاهتمامات مفاتيح سحرية لا حاجي الوجود، بينما كان زياد يقف عاجزاً "[١٥].

منحت الروائية للمكان الروائي بعداً توثيقياً يجلي فضاء المعاناة والبوح وشكل النص الروائي بتشكيلاته السردية وعياً خاصاً في الكتابة "يقابل ذلك الوعي بالأشياء، وعند الكشف عن الموضوع من خلال لغة النص، نكون قد كشفنا عن هذا الوعي الموجود قبل عملية الكتابة نفسها، وهنا تكمن أهميته؛ لأنه يكون دافعاً لفعل الكتابة، وسبباً في فعل القراءة ونتيجة حتمية لها. والوعي القصدي بالأشياء لا يتحول الى موضوع أدبي الا بفضل الادراك "[١٦].

وهنا يتحول النص بفعل الادراك الى تركيب جمالي له خصوصيته الفنية باستثماره لنصوص قرائية تجعل من النص طاقة دلالية تستثمر الماضي في صياغة الواقع الراهن بفعل التحريض، والرمز والايحاء، انها رؤية جديدة ووعي بالواقع بكتابة روائية هادفة.

٢. الشخصيات بين الواقع والاسطورة

ان تعدد المفاهيم حول مفهوم الشخصية ولد بالضرورة تعدداً في المفاهيم فهناك من الدارسين من يرى أن الشخصية: " كائن موهوب لصفات بشرية ، وملتزم باحداث بشرية، ممثل متسم بصفات بشرية والشخصيات ممكن أن تكون فعالة تخضع للتغير مستقرة حيتما لا يكون هناك تناقض في صفاتها وأفعالها (...) أو عميقة معقدة لها أبعاد عديدة قادرة على القيام بسلوك مفاجيء ويمكن أن تصنف على وفق أفعالها وأقوالها ومشاعرها ومظهرها على وفق أدوار معيارية (...) وفي أحيان كثيرة يشير الى السارد والمسرود "[١٧].

ويتيح تعدد الأصوات في الرواية انفعالات النص من تحكم المنظور الواحد ويتحول حضور الشخصية الروائية الى صوت يعبر عن موقف ينفلت فيه من أسرار الراوي الواحد مما يعني خروجاً عن سيطرة الراوي، مما يعني الأدب الحواري الذي أشار اليه باختين المتمظهر بالتعدد في الاصوات واللغات والاساليب.

وقد نلتمس التعدد اللغوي في الرواية من خلال تعددية أشكال الوعي المتصارعة، وتبعاً لمستوى التوظيف في النص والانفتاح على نصوص أخرى، تاريخية، فلسفية، تراكمية، اسطورية.

وظف الروائيون العراقيون الاسطورة للتعبير عن انسان هذا العصر واستلهموا واقع شخصياتهم من رموز شخصياتها، وتبدو لطفية الدليمي في روايتها (حديقة حياة) كاتبة وروائية حاولت استجلاء الواقع العراقي وازماته

عبر مرموزات تاريخية وقد كان هذا التوظيف لا لزيادة الغموض والايهام بقدر ما هو تعبير عن طروحات المرأة الفكرية والسياسية والاجتماعية وذلك بإخراجها من مرجعياتها التاريخية الى دلالاتها الحضارية وجعلها تطهير رمزي لواقعها.

وغالباً ما يكاد يشتبك مفهوم الشخصية الاسطورية بالشخصية الغرائبية وذلك لأن الشخصية الاسطورية تحمل سمة الغرائبي المخالف للمألوف والخارق للطبيعة.

وقد حاولت الروائية اظهار الشخصية الاسطورية في النص من خلال اتجاهين؛ اخباري واظهاري؛ فهي تحاول تعريف القاريء في البداية بمتعلقات تلك الشخصية في حين انها لفتت في الجانب الثاني لاعطاء فسحة للمتلقي للتعرف على تلك الشخصية بصورة مباشرة (اخبارية) وابراز ملامح تلك الشخصية بآليات التحليل والتمثيل والتصوير[١٨].

استلهمت لطفية الدليمي وحي شخصياتها من (ملحمة كلكامش) الرافدينية، والتي نشأت من عدة أساطير قد تمركزت فنياً لتتمحور حول شخصية كلكامش المركزية التي تسمو بأفعالها وتوجهاتها وحيازتها التأثير في الكثير من الأفعال الفنية والابداعية.

يتجه الحوار في الرواية نحو مسرحة الحدث وقد وظفت الروائية اسماء شخصيات تاريخية من قبل (كلكامش) و (سيدوري) و (عشتار) و (اور شنابي) لتكون شخصيات مسرحيتها واختارت المسرحية ليتم تمثيل المشاهد بصورة أكثر وبرؤية تشترك الحواس في معاينتها، فقد أعادت الملحمة العراقية من سياقها التاريخي الى سياق جديد وبنائها على وفق رؤية معاصرة لتحريك واقع بات راكداً، فكان لابد لنقل تلك الاحداث المحكية في واقع النص ان تعيد قراءة الواقع وإزالة ما تراكم فيه من أسلبة حجبت رؤية الحقائق في واقعها المعيش وقد استعانت الروائية بتلك المرجعيات التاريخية " بوصفها منجزاً حضارياً وابداعياً، اذ يعاد الموروث عبر منظور عصري، ويصاغ بأبعاد فكرية وسياسية وفلسفية جديدة، وبذلك يتحول النص المرجعي الى موضوع عام يعالج قضايا انسانية مما يزيد من فاعلية النص، وينتج قراءات تأويلية، وبالتالي انفتاح النص على احالات نصية لا حصر لها "[١٩].

ترتقي الكاتبة بأداء الذات الانسانية الفاعلة من خلال شخصياتها التي ترى نفسها عبر المعطيات الثقافية والفكرية اذ تتولى الاسطورة وظيفة التأصيل ودمج الاحداث التي تكون مرتبطة بالبدايات " لا أملك مكيالاً لقياس الطوفانات ولكني أتيقن وهي مستغرقة في البكاء انها تدفع ضريبة الدموع عن نساء البلاد جميعهن من أول الخليقة حتى آخر الحروب وظهور النجم المذنب لقيامة العالم .... تؤدي أمي ضريبة الدموع عن النساء منذ

شطر الابناء جسد الام الكونية سيدة المياه المالحة (تيامات) الى نصفين .... من النصف الأول فتحوا سقفاً للسماء ومن (كبد) تيامات الذي اقتلعوه بأيديهم قدروا أعالي البروج (...) من عينها اليمنى فجروا نهر دكلاتو (دجلة) ومن عينها اليسرى فجروا نهر الفرات "[٢٠].

ومحاولة الروائية أسطرة الشخصيات الروائية عبر النص الآخر أو الموازي في استجلاء (أنا البطل) اذ تكون مقولة كلكامش مهاداً مشفراً يميط اللثام بدقة عما يصطرع في تلك (الانا) من أفكار محتدمة جراء أزماته وانكساراته فنصغي الى النبرات المستسلمة المكنونة في الصوت الآخر وهو يخاطب (حياة) وان كان هذا النص يرد في اطار ادانة ضمنية للحاضر الراهن وكما تبوح به البنية السردية.

" **الصوت: لمَ التعجل؟ وعلام تعذبك الأسئلة؟ وما هذا التعب الذي يعلو وجهك وينهك جسدك؟**

كلكامش: متعجل لأني أروم السفر من مياه بحر الموت والأسئلة تعذبني لأنني أنا سؤال حائر يطوف العالم بحثاً عن جواب "[٢١].

ان موت (السارد العليم) العارف لمكامن السرد والمكتشف لأفكار الذات الانسانية / الشخصية / فالوقائع والحقائق محض تأويلات لاوجود فعلي لها كما يقر (نيتشه) تتجسد في النص الروائي بتعطيل مسار السرد ولأن الانسان وفق ما أقرَهُ (نيتشه) في العصر الحديث نتاج المؤسسة دونما مرجع الهي فهو تشكيل مركب بقيم وأفكار الذات، عزز انكفاء الذات الانسانية الشخصية الى صدفتها وفضائها السايكولوجي، دونما فعل بطولي بل لجأت الى محاكاة البطل الملحمي (كلكامش) ليتجه السرد نحو أسطرة الواقع، فما أتت به سرديات الملحمة نستقر عند حقائق ماثيولوجية، والذات الانسانية/ الشخصية لها تركيبتها الذاتية خارج فرضيات الروائي / الروائية.

يتدرج النص من التلميح الى التصريح لتضعنا (لطفية الدليمي) في تماس مباشر مع شخصياتها وكأن (تيامات) هي الأم الرافدينية " منذ ذلك اليوم والامهات وأمي يبكين لتهدأ نفس (تيامات) التي فتك بها أبناؤها ... تبكي أمي ليعود أبي ... وتبكي ليوقظ معها سبات الأرض ويبزغ الخصب في تراب حديقتها ... تبكي تيامات، التي هي أمنا وأمي جميعاً "[٢٢].

تتنحى الأسطورة لتحل محلها الاسطورة المرأة (الأم، الاخت، الابنة، الزوجة....).

ان الاحداث الاسطورية التي جسدتها ملحمة (كلكامش) تتدرج تحت مظلة الانتقال من الحدث المألوف الى الحدث غير المألوف على الأقل من الناحية الزمنية فهي مألوفة في ذلك الزمن (زمن الاسطورة) لكنها غير مألوفة بالنسبة الينا وفي اطار زمنية السرد، لهذا اجتهدت الروائية في جعلها محور بناء النص ونقطة ارتكازه فصلاً عن اضافة مسحة الغموض المعتادة في النص الروائي كتقنية حداثية تعتمد التلوين السردي.

ان تلك الاحداث الماثلة في النص استخدمتها الروائية في محاولة تجريبية جديدة لتحريك دلالات النص وبث الحركية والحياة في مفاصلة، ثم جعلها تقانة مهمة جداً لتنمية شخصيات النص صاحبة الاحداث واضافة الاثارة والتشويق ومن ثم جعلها تلك البؤرة المشعة التي تحرك النص وتجذب الانتباه نحوها بإيحاء دلالي غير مباشر[٢٣].

لقد عمدت الروائية الى استثمار شخصيات أساطير العهد القديم كجزء من الانماط الاسطورية الداخلة بشكل رئيس في بناء الرواية الحديثة فقد قامت بتجديد مسار تلك الشخصيات بغية تحديد موقفها من قضايات الواقع الحديث لاسيما السياسي.

تقول في نص الرواية " تعود إليّ الكوابيس بعد نوم أمي ... تأخذني الى تلك الدهور الأولى التي سبقت الطوفان في أور المقدسة ... اسمع مراثي المنشدين يرثون أور التي أستبيحت .... المشاهد تتوالى على مخيلتي: أرى أهل أور في سنواتها السبع العجافا "[٢٤].

تكمل ميساء مسيرة أمها (حياة) التي غادرها زوجها في الحرب ليرحل زياد حبيبها الى انكلترا بسبب الظروف التي آلت اليها البلاد ففي الوقت الذي يسجل السرد هروب (زياد) في وطنه تتشبث ميساء بالحياة في (حديقة حياة) لتكون موطنها البديل.

يحتفي السرد بـ(حياة) ليجعلها بطلة اسطورية وتصبح (حياة) مرادفاً لكل النساء في هذه الأرض وأماً لهن ولتصبح (حياة) ظهيراً للحياة ولتصوغ الروائية متناً سيرياً ينقش بصماته على ذاكرة المكان مواجع وتطلعات بمكابدة جمالية خاصة وهي تسلط الضوء على مكابدات تلك المرأة بدءاً من العنوان (حديقة حياة) وحتى الختام بوصفها الرهان الاصعب الذي يحمل في مضمره احتجاجاً على الواقع السياسي والاجتماعي على حد سواء وادانة الراهن بأنساقه الايديولوجية والسياسية، ليكون لسرديات الملحمة أداءها الذاتي وتركيبتها الخاصة، وتبقى الرواية جنساً سردياً، تظل باحثة عن ماهيتها وتشكلاتها بجهد ينتهي بقبول نقصانها وعدم اكتمالها لجدلية التحول والاضافة والتجريب.

نتائج البحث:

١. ان التحول النوعي الذي تنجزه الرواية العراقية، من حيث الاهتمام والنوع والكم والمقترحات الجمالية، يضاعف من رهاناتها ويعمق دورها ووظيفتها.

٢. يتحتم على الروائية أن تكون جذرية ونقدية في مسعاها الى اغناء المتخيل الجمعي والارتقاء به حالياً.

٣. قدرتها الهائلة على تقديم شخوص متباينة في مواقفها وتصوراتها التي تعبر عنها ونجحت في أن تجعل من الاسطوري (المتخيل) عنصر انتقاد لما هو قائم.

٤. خصوصية السرد العراقي النسائي في ايراد تقانات جديدة في النص الروائي عبر آليات الرسائل والنصوص المسرحية.

٥. الاتجاه نحو مسرحة الحدث بتقانة تعبيرية جديدة أعطت فسحة تأويلية للنص بانفتاحه على أنساق تعبيرية جديدة.

٦. اسهمت الروائية في عملية تدشين النسق الاسطوري كنسق ثقافي جديد بتوجه سردي مضاد للآخر بهدف مقاومته واستعادة ما عمل على تغييره كالتاريخ والامكنة.

٧. ثمة سردية مغايرة في بناء شخوصها وتركيب احداثها أثبت السرد أن (الاسطورة) بوصفها متخيلاً هي خطاب لا يقل أهمية وخطورة عن بقية الخطابات الاخرى.

٨. بنية التشكيل السردي في الرواية اعتمدت تقانات تجريبية جديدة وهو مؤشر يؤكد خصوصية جمالية اضافت ميزة نوعية للسرد الروائي عامة والسرد النسوي خاصة.

٩. تعيد الاسطورة تشكيل الواقع برهانات جديدة حيث الزمن الدائري فما جرى تمثيله على هذه الأرض يعاد تمثليه سردياً فتتحدث عن معاني اللايقين والعجيب والصيرورة المقلقة.

١٠. تكتسب رواية حديقة حياة قيمة نموذجية لأن معناها منوط بمكابدات انسان هذا العصر وتساؤلاته بارتكازها الى تراث ثقافي ولتجعل من الاسطورة لوحة مرتسمة برمزيات المكان ومكائد الزمن .

احالات البحث

١. حديقة حياة: ٥٣ .
٢. بانوراما الرواية العربية الحديثة: ٧١ .
٣. ينظر: مجلة أقلام: ع٢، ٢٠١٣، حوار جاسم عاصي مع الناقد ناجح المعموري: ٨٣ – ٨٤.
٤. ينظر التحولات في الرواية العربية: ٤١ .
٥. ينظر: النزوع الاسطوري في الرواية العربية المعاصرة: ١٣٨.
٦. ينظر: حديقة حياة: من ١٣٠ – ١٣٧ .
٧. ينظر التجريب في الرواية العراقية: سعيد حميد كاظم: ٢٥٧ السنوية بعد عام ٢٠٠٣ (أطروحة دكتوراه كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٥.
٨. حديقة حياة: ١٣٠ – ١٣١ .
٩. حديقة حياة: ١٣١ – ١٣٢.
١٠. حديقة حياة: ١٣١ – ١٣٢ .
١١. حديقة حياة: ١٣٥ – ١٣٦ .
١٢. شهرزاد وغواية السرد: ٩١ .
١٣. حديقة حياة: ١٣٢ – ١٤٢ .
١٤. النزوع الاسطوري في الرواية العربية المعاصرة، نصال صالح، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١، ص١٦.
١٥. حديقة حياة: ١٢٣ – ١٢٤ .
١٦. النقد الموضوعاتي وتداخل الاختصاصات (المفهوم والاجراء)، حسين تروش، مجلة فصول، المجلد (٢/٢٦/) العدد ١٠٢، ٢٠١٨، ص٢١٤.
١٧. جيرالد برنس: المصطلح السردي، تر: عابد خازندار، ط٣، المشروع القومي للترجمة، الجزيرة، ٢٠٠٣، ص٤٢ – ٤٣.
١٨. ينظر: أثير عادل شواي: تقنيات تقديم الشخصية في الرواية العربية، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ٢٠٠٩، ص ٣٩ – ٤٠.
١٩. التداخل الحكائي في الرواية العراقية: فاطمة بدر، مجلة آفاق أدبية، ع٢، ٢٠١١، ص٢٨.
٢٠. حديقة حياة: ٥٣ .
٢١. حديقة حياة: ١٣٠ – ١٣١ .
٢٢. حديقة حياة: ٥٣ .
٢٣. ينظر: نادية بوشفرة: معالم سيميائية في مضمون الخطاب السردي (د.ط)، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وذزو، الجزائر، ص٣٦.
٢٤. حديقة حياة: ٤٥.

المصادر والمراجع

١. أثير عادل شواي، تقنيات الشخصية في الرواية العراقية العربية، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ٢٠٠٩.

٢. جيرالد برنس: المصطلح السردي، تر: عابد خازندار، ط٣، المشروع القومي للترجمة، الجزيرة، ٢٠٠٣.

٣. حسين تروش: النقد الموضوعاتي وتداخل الاختصاصات (المفهوم والاجراء)، مجلة فصول، المجلد (٢/٢٦/) العدد ١٠٢، ٢٠١٨.

٤. سعيد حميد كاظم: التجريب في الرواية العراقية، ٢٥٧ السنوية بعد عام ٢٠٠٣ (أطروحة دكتوراه كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٥.

٥. سيد حامد النشاج: بانوراما الرواية العربية الحديثة، مكتب غريب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥.

٦. فاطمة بدر: التداخل الحكائي في الرواية العراقية، مجلة آفاق أدبية، ع٢، ٢٠١١.

٧. لطفية الدليمي: حديقة حياة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣.

٨. مجلة أقلام، ع٢، ٢٠١٣، حوار جاسم عاصي مع الناقد المعموري.

٩. نادية بوشفرة: معالم سيميائية في مضمون الخطاب السردي (د.ط)، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي ودزو، الجزائر.

١٠. نزيه ابو نضال: التحولات في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الاردن، ط١، ٢٠٠٩.

١١. نضال الصالح: النزوع الاسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العربي، ٢٠٠١.

١٢. وجدان الصائغ: شهرزاد وغواية السرد قراءة في القصة والرواية الانثوية، الدار العربية للعلوم ناشرون –منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨.